



قال تعالى "إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَأَبَيَّنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِنْسَانٌ إِنَّهُ كَانَ ظَلَومًا جَهُولًا" (الأحزاب 72).

جاء في تفسير الآية: " هي سُنّة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين العالم وما فيه، وبخاصة الإنسان ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربهم بمقدار جريهم على هذه السنّة ورعايهم في تطبيقها.." 1

وقيل في معنى الأمانة: هي الطاعة، والفرائض أو التكليف وقبول الأوامر والنواهي، وقال بعضهم: هي ما أودعه الله في نفوس الناس من دلائل التوحيد، فكأنها عهد الله لهم وأمانة ائتمنهم عليها.

إذن لقد قبل الإنسان بحمل الأمانة التي أبى السموات والأرض والجبال أن يحملنها، أليس هذا تشريفاً وتكريفاً، أليس لأنه يملك القدرة على الإختيار أو أنه أعطي القدرة على الاختيار، وقد وبه الله سبحانه العقل والإدراك ليختار الطريق الأقوم، ويعاني المصاعب والمتابع في سبيل ذلك، وهذا ما يميزه بين المخلوقات قال تعالى: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها).

قال في (حجۃ الله البالغة) في تفسير هذه الآية: "فَإِنَّ الظُّلُمَوْنَ مَنْ لَا يَكُونُ عَادِلًا، وَمَنْ شَأْنَهُ أَنْ يَعْدُل، وَالْجَهُولُ مَنْ لَا يَكُونُ عَالِمًا وَمَنْ شَأْنَهُ أَنْ يَعْلَمُ ، وَغَيْرُ الْأَدْمِي إِمَا عَالِمٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الظُّلُمُ وَالْجَهَلُ كَالْمَلَائِكَةِ ، وَإِمَا لَيْسَ بِعَالِمٍ وَلَا عَادِلٍ وَلَا

من شأنه أن يكسبها كالبهائم ، وإنما يليق بالتكليف ويستعد له من كان له كمال بالقوة لا بالفعل...².

هذه القدرة على الاختيار (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)، هي التي تعطي الحياة الإنسانية جلالها ، ويفرض عليها عبئها الأكبر في الفوز بعد الابتلاءات الدنيوية ، لقد قبل الإنسان هذه الأمانة وإن جهل خطرها أو قصر في الوفاء التام بكل حقوقها .

والدليل على تحمل الإنسان لهذه الأمانة وقدرته على الإختيار قوله تعالى: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) أي جعلناه مدركاً ذا عقل لتحقيق الاختيار .

وقوله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) هود/118 - 119

أي لأن لهم هذا الشأن وهو القدرة على فعل هذا وهذا ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة، كلهم مؤمنون لكن ذلك، ولكن ترك للإنسان حرية الاختيار بعد أن دله على الطريق المستقيم وأرسل له الكتب والأنبياء، وعنده القدرة على دفع الشر إذا كان صادقاً في طلب الخير. قال تعالى: "وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز ، ولو شاء لهداكم أجمعين" (النحل/ 9) وأن الإنسان يولد على الفطرة، فمعنى ذلك أن عنده قدرات داخلية على فعل الخير، فالعقل ليس صفة بيضاء تطبع عليها المعطيات المادية كأنه سطح من الشمع وإنما هو كيان مفظور فيه مقولات قَبْلَيَّةٍ توجد قبل التجربة الحسية فالطفل يُولَدُ كلمات جديدة من خلال القياس مع أنه لم يتعلم قواعد القياس³.

هذه الفطرة السليمة ، وهذه القدرة على الاختيار هي التي تمنح الإنسان القوة والعلم.

فالحياة ليست سلسلة من الأمور السهلة ، بل فيها اختبارات كي يتحقق للمسلم أن يسمو بنفسه ، ويحقق سر الأمانة، ويتحرر من الأغلال والآصار، أما إذا استسلم للأهواء ووساووس النفس فإنه سيضعف شيئاً فشيئاً وقد يصل إلى مرحلة (اللاعودة) ويصبح وليس عنده القدرة على الرجوع، لقد ضعفت شخصيته وعزمه وتردى وذهبت حريته في الاختيار ، وهذا ما ذكره القرآن الكريم (بل ران على قلوبهم) والآية الكريمة (إنا عرضنا الأمانة ...) فيها ملمح إلى شيء آخر مهم جداً في حياة المسلمين وهو أن الجهل هو أحد الأسباب الكبرى للتفرق، وكذلك الظلم وهو البغي كما ذُكر في آيات كثيرة، وهذا موضوع آخر وله شأن كبير.

1- الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير 9 / 124 .

2- ولی الله الدهلوی : حجة الله البالغة 1 / 19 .

3- حورات مع عبد الوهاب المسيري 1 / 246 .